اليد العليا



قصة من الواقع

عمر محمود عبد الله

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 01 / ذو الحجة / 1445 هـ
المـوافـق 07 / 06 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي

قصة من الواقع

اليد العليا

عمر محمود عبد الله

٢٠ ربيع الأول ١٤٢٢هـ

م. سرمد حاتم شكر

طبع بموافقة وزارة الثقافة والإعلام المرقمة ٢٧١ في ٢٠٠١/٥/١٦

طبع في شركة الخنساء للطباعة المحدودة - بغداد - هاتف - ٨١٨٦٣٢٨ تيلفاكس ٨١٨٤٨٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

كل أهل المدينة يعرفونـني عن قرب أو إذا رأوني أمشي الهوينة. فأنا مازلت أسكن في منطقة النبي يونس. وأخرج كل يوم صباحاً أحمل (الكونية) كيس القماش على ظهري. ماشياً بتؤدة معهودة. فقد أثقلتني السنون وأتعبتني أيام العمل الطويل. فأذهب إلى باب الجسر وباب السراي والقيصرية ذات السبعة أبواب وسوق العتمة[1] وسوق العطارين وسوق الصاغة وأجوب كل أسواق الموصل القديمة. ويعرفني أكثر سكان محلة المشاهدة وخزرج ورأس الجادة. لأني كنت عاملاً في بلدية الموصل لسنين عديدة. أحببت كلّ الناس. لذا فلا يوجد نظيرُ لي. فكلَ التجار وصغار الكسبة والباعة المتجولين ومن حملت عنه أثقاله على ظهري إلى سيارته أو منزله يعطفون عليَّ. ويعجبهم أن يمزحوا معي ويلاطفوني، وقسم منهم قد أصبحت عنده ذكرى أثيرة. فالصبية الذين كنت أداعِبهم وأحياناً أغضب عليهم لأنهم كانوا يعاكسونني في عملي. صاروا الآن رجالاً وموظفين كباراً. وكثيراً ما يستوقفونني ويكرموني ويحملوني بسيارتهم إلى حيث أريد. فأنا اليوم (أبن هذه المدينة) هم أهلي وعشيرتي. ونسبي ولكن ليس فيهم من يعرف عنّي إلا القليل.

---

(١) ويقال له سوق (العتمي) بالإمالة باللهجة الموصلية.

فمنهم من يعرف أني عامل بلدية متقاعد وآخرون يرون أني حمّال أمين والبعض يرى في ملابسي القديمة وسروالي الفضفاض. والجوارب الطويلة التي تصل إلى الركبتين وقد احتضنت أطراف السروال السفلى والحزام القماش العريض المزركش وأن بهتت ألوانه. وغطاء الرأس المميز (لفة وطاقية رأس - (عقجين) أصفر) فلوكلوراً شعبياً. ومما أراحني كثيراً أنهم أرتضوني وقبلوني بينهم ولم يتطفلوا عليّ واحترموا صمتي. الكثيرون قد رأوني ولكن القليل منهم سمعني أتكلم. لم يلح أحدهم علي بسؤال من أنا؟ ومن أين أتيت؟ آن لي وأنا على عتبة التسعين أن أحكي لهم قصتي عسى أن يكون فيها عبرة. وهذا جزء من حقهم عليّ. ولدت في قرية (نيروي) في أعالي جبل (كوري) ورأت عيناي النور بين صخوره العاتية وكهوفه المظلمة وأشجار الجوز الضخمة الوارقة الظل والحبة الخضراء والفستق والبطم والكازو وكتل الثلج التي تغطي القمم العالية طوال أيام السنة.

يمتاز أهل القرية بالطيبة والصلاح وحسن الخلق وقد تكفل الله سبحانه برزقهم، فهم يعيشون على تجارة المكسرات المذكورة البرية المنشأ فيكثرونها ويعتنون بها وتسقى من العيون التي تمر خلالها بصورة طبيعية. حدت بهم هذه الطبيعة الساحرة والمورد المستقر إلى التطلع للعلوم.

فالفراغ أبو الحكمة كما يقولون. وفي مقدمتها العلوم الإسلامية. وكان جدي لأمي شيخ القرية. فأرادت (أم محروس) أن يكون أبنها مثل أبيها. ولاقت هذه الرغبة موافقة أبي كذلك فاتفقا على إرسالي إلى مدرسة الشيخ عبد الحكيم في (شقلاوة).

وفي يوم مشمس من أيام تشرين الثاني هيأتني أمي نفسيا لتقبل الفكرة فقالت:

-آلا تحب أن تكون مثل جدك؟

وكنت أرى جدي على منبر الجمعة مرات عديدة. وأرى الناس يقبلون يديه بعد الصلاة ويحتفون به ويسيرون خلفه حتى يصل إلى داره. وقد نال أبي من منزلة أبيه وشرفه الخير والاحترام من قبل سكان الجبل جميعاً.

نظرت في عينيها وابتسامتها المشرقة لازالت تحتضنني وقد تدلت جدائلها على صدرها في نهاية كل جذلة وردة من القماش البنفسجي وفي يديها إبرة وقطعة قماش من (الململ) تطرزها خماراً لأختي الصغرى. ثم قلت:

-عندما أكبر سأكون مثله.

ضحكت أمي حتى بدت نواجذها وربتت على كتفي قائلة:

-أن أردت أن تكون مثله يجب أن تبدأ بالدرس. والتعلم في مدرسة الشيخ عبد الحكيم لتكون عالماً. فمن لا يأخذ لا يقدر

على العطاء. لذا ستذهب مع أبيك إلى المدرسة غداً وسيأتي ليأخذك نهاية كل شهر. سأقلق عليك وأحزن لفراقك لكني سأدعو الله لك. لتكون رجلاً نفخر بك. وقد أعددت لك سروالاً جديداً وقبعة سميكة وسترة مبطنة بالفرو. تقيك البرد. وحزام ملون ليساعدك على الحركة. وقد نقشت أسمك على حاجاتك.

تعلق فكري بمنظر جدّي وهو يخرج من المسجد إلى البيت بكل الهيبة والحفاوة من أهل القرية فللوجاهة مكانتها عند سكان القرى وكلٌ يعرف حدوده فلا يتعداها. سرحت بخواطري ثم قلت:

-مَن سيعين أبي في موسم تقليم الأشجار وجني الثمار؟

أخذتني بين ذراعيها وقبلتني وهي معجبة بذكائي وشعوري بالمسؤولية بالرغم من صغري.

اجتاحتني فرحة عارمة بمغادرة القرية إلى المدينة. فقلت على الفور:

-وهل سيسمح لنا (الملاّ) باللعب بالمراجيح وركوب الحصان الخشبي والناعور في ساحة ألعاب العيد؟.

لم تشأ أن تعدني بما لم يتحقق فمسحت على رأسي قائلة:

-سيكون لك أصدقاء جدد وستتعلم الكثير مما نجهله وستفرح القرية كلها بك.

في الصباح والشمس تشرق على سفح الجبل باعثة في أهله الدفء والنشاط والحياة. اصطحبني أبي. نزلنا من الجبل عبر طريق نسيمي وعر. لكنه أقصر من الطريق الآخر و كنت أتنطط أمامه فوق الصخور وهو يحذرني بين آونة وأخرى. عبرنا (مضيق بالندا) الذي يمر من خلاله نهر غزير المياه عبر سلسلتين من الجبال العالية. واصلنا المسير إلى مدرسة شقلاوة على ظهر الدابة التي كنت رديف أبي عليها. عرّفني على شيخ المدرسة. كان من عادة الشيخ أن يختبر الصغار فإذا توسّم في أحدهم الذكاء قَبِلَهُ وإلا أعتذر عن قبوله بكثرة العدد وقلة المؤونة. رحّبً بنا وقال ملاطفاً بتكلف ظاهر. الولد الصغير.

- ما أسمك يا بني؟

فقلت بجرأة وأنا أنظر في عيني الشيخ الكليلتين خلف نظّارته الكبيرة العدسات وتبدت لي عيناه واسعتان من خلالها:

- (محروس كمال الدين)

قال الشيخ:

- طيب يا محروس. ما أسم قريتك؟

قلت:

- (نيروي).

سكت برهة ونظر في جبيني ثم قال لي وأبي بجانبي جالس بتحفظ وكأن الشيخ يمتحنه:

- مريم بنت عمران. من أبوها؟

فقلت بثقة:

- أنه عمران (يا سيدا)[1] ألم تقل مريم بنت عمران؟

تبسم ثم أردف قائلاً:

- هذا سؤال أخر تشارك اثنان في ثور. واحد يملكه. والآخر يطعمه. فكيف يقتسمان حليبه؟

تدخل أبي قائلاً لا تسرع يا محروس فكر جيداً ثم أعاد علي السؤال وكرر كلمة الثور فانتبهت وقلت على الفور:

- وهل الثور يُحتلَبْ؟

ارتسمت علامات الرضى على قسمات وجه الشيخ المجعد ثم ألتفت إلى أبي قائلاً:

- تستطيع أن تتركه وتمضي مرتاح البال.

ودعني أبي على عتبة المدرسة وهو مطمئن على نظام المدرسة ومصداقية شيخها ولم ينس أن يوصيه بي. كان أبي أمياً وأمي متعلمة وقد أعترف لها أبي بهذا الفضل فيأخذ برأيها ويستشيرها في شؤونه كلها. نسيت حياة الطفولة ولم يبق لي وقت للعب إلا بعض (المهارشة) مع الزملاء في أوقات الفراغ.

في اليوم الثاني تم حلق رؤوس الأطفال الجدد (نمرة أربعة) حسب نظام المدرسة مع الاغتسال وتخصيص غرف المنام

---

(١) سيدا: كلمة احترام تقال للشيخ والعالم أو رجال الوقور عند الأكراد

وتسليم لوازم الطعام وكأننا جنود في ثكنة عسكرية. تغيرت ملامح وجوهنا وعمت الطلاب موجة من الضحك والتندر كل بالآخر. وبلا إضاعة للوقت بدأ الدرس الأول في اليوم نفسه بعد صلاة العصر في الأول من الشهر التاسع في ظل شجرة توت معمرة وارفة الظلال على حافة جدول ماء عذب يمر في وسط المسجد. جلس شيخنا الوقور بوجهه الوضاء يفوح من ملابسه الطيب.

وقد شكلنا نصف دائرة حوله مربعين على الأرض. لا أدري لماذا شعرت أنه يوجه خطابه إلي فقال بعد الحمد والثناء على الله تعالى والصلاة على الرسول:

درسُنا اليوم عن (التقوى). التقوى يا أولادي: ترك فضول النظر. وفضول السمع وفضول التفكير، ثم أردف مبسطاً كلماته فقال:

ترك فضول النظر: أن تحجب نظرك عما لا يحل لك.

وترك فضول السمع: إلا تتسمع إلى من لا يريدك أن تسمعه وترك فضول التفكير:

أن تفكر فيما ينفعك. في دنياك وأخراك مما يدركه عقلك. ثم شرح الدرس وضرب لنا الأمثال. حتى لامس عقولنا الصغيرة. ترك هذا الدرس أبلغ الأثر في نفسي وكان الشيخ بعدها يذكرنا به. فإذا رأى أحدنا كثير الالتفات إلى الغادين

والرائحين سأله ما حقيقة التقوى فيجيبه : (ترك فضول النظر) فيقول له كفى ألتزمها. وإذا رأى أحد في ممرات المدرسة أو قرب غرف المدرسين بتسمع سأله السؤال نفسه. فيجيبه : (ترك فضول النظر وفضول السمع). فيقول: كفى ألتزم ما قلت. وهكذا عن التفكير إذا ألح أحدنا بأسئلة خارج الموضوع لتضييع الوقت أو تستعصي على الفهم. ألتزم الصبية هذا الأدب إلا (حماد) كان كثير الأسئلة. ولا يدع الشيخ يمر على مسألة إلا بعد أن يستوعبها. كنا نظنه بطيء الفهم وكثيراً ما يعترض فقال له الشيخ مازحاً يوماً (أنت أبو حنيفة الصغير) أعانني الله على تدريسك. ونسي أسم حماد بعد ذلك. فكل الطلبة ينادونه أبا حنيفة. لم يعد يتضايق أو يتذمر. ثم علمنا بعدئذ أن هذه الكنية مدعاة للفخر. ويجيب حماد من يناديه بذلك. ويشعر بالاعتزاز.

أعتدت على أجواء الدراسة ونظامها بالرغم من صرامته وتعرفت على التلاميذ الجدد في صفي من شتى القرى. توسم الشيخ في الفطنة فقدمني مراقباً عليهم ومسؤولاً عنهم في غيابه. وكان هذا لي مسلاة وعزاء لبعدي عن أمي وأسرتي كان نظام المدرسة يعتمد على أثرياء المدينة في وجبات طعام الغداء. فكل مجموعة تتسلم الوجبة من أحد البيوت يومياً حسب جدول معد طيلة أيام الشهر بمعدل يومين في الشهر لكل بيت.

سارت الأيام رتيبة لكنها لم تخل من متعة. متعة الجديد في العلوم ولذة التجوّل والتعرف على طباع الناس وعاداتهم وأعرافهم بصحبة الشَيخ الذي يحرص على أخذنا معه في المجالس والمناسبات. إذ يصطحب في كل مناسبة مجموعة من تلاميذه. مرت السنوات الخمس الأولى وفي بداية السنة السادسة في يوم عاصف مطير. ذهبت لأجلب الطعام من بيت (كريم اغا) وكانت وجبة الطعام (دولمة) لذلك اليوم. مضى أكثر من أسبوعين ولم يأكل الطلاب وجبة تحتوي على لحم!! ورائحة الطبخ والشواء تملأ أنوفنا في غدونا ورواحنا عبر أزقة المدينة.

اجتمعوا على الطعام وقبل أن يأكلوه نبهني أحدهم بأن (الدولمة) المعدة لهم. بلا لحم وفيها (برغل) بدل الرز فأقسمت على زملائي ألاّ يأكل منها أحد. اعترض علي حماد قائلاً:

- كل وأسكت فقد جئنا للعلم لا للتسمين....

وقال عرفان:

- كل وأشكر فهي بهذا الشكل نعمة أيضاً.

لم يفلحا في صدّي عن عزمي. ولم يخالفا أمري. حملتها إلى بيت (كريم أغا) واعدتها إليهم قائلاً:

- هل هذه الدولمة التي أكلتموها أنتم اليوم؟ لسنا مشردين ولا أبناء شوارع. أن لنا أمهات وأباء يفدوننا بأرواحهم ويجوعون لنشبع. وقد أوقفنا أهلنا لخدمتكم وتعليم أبنائكم

في المستقبل؟ أتستكثرون علينا لقيمات تقيم صلبنا؟ وهل يرضى خدمكم بهذا الطعام! أنسيتم أن ما تقدمونه هو هدية لله سبحانه فينبغي تقديم أفضل ما عندكم؟

عدت غضبان أسفاً. بلغ بنا الجوع مبلغه فعمدت وزملائي إلى أكل كسر الخبز اليابس بعد نقعها بالماء ونثر بعض السكر عليها. علم الشيخ عبد الحكيم بالأمر. حاول أن يهدئ من غضبي. وهو قد خبر تلميذه. ذكياً لا يصبر على ضيم وذا شخصية قوية وإذا عزم لا يتردد.

لم تفلح جهوده. كان غضبي عارماً ورفضي لا يقف عن حد. وانفعالي بلغ اوجه مشوباً بالحسرات والشعور بالأسى. مثل أب كريم يعقه أبنه أو أم رؤوم قد كرّست حياتها لأولادها فيأكلون الطعام مع زوجاتهم ويؤثرونهن على أمهم. أو كمن يسهر على راحة مريض حتى إذا تماثل للشفاء أساء إليه. وقفت أمام الشيخ وقلت بعزم لا ينثني:

- لا تلمني (سيدا). نفذ صبري. شعرت بالجفوة والإهمال مع شيء كثير من الاستخفاف المشوب بالإهانة وكأننا نستجدي من هؤلاء البخلاء. لك شكري وتقديري فقد تعلمت منك الكثير. ولن أكون يداً سفلى ما حييت. ألم تعلمنا قول الرسول ﷺ: (اليد العليا خير من اليد السفلى).

في إجازتي الشهرية الأخيرة يا حضرة الشيخ كدت أموت متجمداً فقد بدأت أتسلق جبل (كوري) وأنهلت السماء تنثر شظايا الثلج وأنا أغذ السير صعوداً حتى وصلت منعطفا صعبا. لم أستطع السير أكثر من ذلك وبدأت أطرافي تتجمد. حاولت أن أزحف فلم أستطع. آمنت بأن منيتي حانت. ولم أشعر بالندم أو الضياع أو أنني لم أحقق شيئا. بل كنت أشعر كمجاهد أدى ما عليه ودنت لحظة اللقاء والعناق بالنبي ﷺ وأصحابه الأطهار. جلست وسط الثلج بلا حراك أكرر الشهادة تارة وادعوا الله أخرى. مرت بي امرأة من قرية قريبة من قريتنا فعرفتني وكانت تحمل أبنها الصغير في محمل من القماش سميك على ظهرها فقالت:

- أصبر وعليك بالحركة في مكانك ريثما أعود إليك.

ومكثت أصارع الموت دقائق حسبتها شهوراً فجاءتني المرأة التي أسميتها (العمة شهامة) وعيناي معلقتان بالسماء بين الخوف والرجاء.

تقود دابتها ومعها أبنها الكبير فحملاني ووضعاني على ظهر الدابة. وصلنا القرية وقد أعد أهل بيتها الماء الحار والدثار والشاي وبدأت بعلاجي. ناولتني قدح الشاي الحار فاحتسيته ثم أعقبتها بصحن مملوء بشوربة العدس الدافئة. ووضعوا أقدامي في طست وصبوا عليها الماء مع التدليك.

حتى بدأت أشعر بتنمل في أصابعي ثم دبت الحركة في أوصالي. ونمت ليلتها عند (السيدة مرجانة) وفي الصباح واصلت السير إلى قريتي ولم أبح لأحد عن معاناتي تلك إلا أمامك الآن. ألا يشعر المجاهد بالأسى إذا علم أن مجتمعه لم يرع أولاده من بعده؟

أفلا يشعر المدرس بالحزن إذا علم أن الأباء لا يوقرونه؟ وأن الأمهات يسخرون منه؟ أنها معادلة لا تقبل الخطأ نحن نؤدي واجبنا نيابة عن الجميع لنحفظ ديننا وعاداتنا وتراثنا وأخلاق قريتنا.

لم يجد الشيخ جواباً فكلماتي كأنها صواعق متتابعة أشد من التي قبلها. والحق معي ويعرف الشيخ ذلك. بقي صامتاً ولكني كنت أقرأ أفكاره المخلصة والتي لم استطع حملها فكثيراً ما كان يقول: (إذا تخلى الناس عن واجبهم كسلاً بخلاً جنباً. أيجوز أن نتخلى نحن أيضاً. ومن للأمة في أيام محنتها غير علمائها ؟)

لم يجبني الرجل. لم يرد أن ينفخ في قربة مقطوعة. ففورة الشباب عارمة. وما كنت لأقبل عذراً بعد كل ما أصابني فأنا أبن النعمة والدلال نزلت دموع الشيخ على خديه حتى بلت لحيته أسفاً عليّ إذ كان يتوسم في الخير ويعدني لأكون خليفته.

تركت كل كتبي وكراريسي في المدرسة. لم آخذ منها شيئاً إلا عمامتي البيضاء المحبوكة. التي كنت ألبسها في غياب الشيخ فأصلي بالناس نيابة عنه. احتفظت بها تيمناً بذكرى أيام حلوة هادئة وعلوم غزيرة أثيرة. لم أصبر على تكاليف تحصيلها وأوشكت على الفوز بها. تركت المدرسة أبلغ الأثر في حياتي ووسعت مداركي وآفاق تفكيري عدت إلى القرية. عشت أيام بين الندم واليأس. والإحباط. ففرص العمل قليلة في القرية وآمالي وأمنياتي قد امتدت. وقد رأيت ثراء المدينة وغنى أهلها وطريقة عيشهم. وخاب ظن أمي بي إذ لم أنل مكانة أبيها كما كانت تتمنى. فأردت أن أعوضها عن ذلك بنجاح يحقق شيئاً من أحلامها. فقررت الاحتراف. لم أجد أمامي فرصة في وقتها إلا تجارة الأسلحة (الشخصية) مسدس. بندقية وكان فيها ربح وفير. حال كل تجارة ممنوعة. كان اندفاعي للثراء لا حدود له. شاباً متوثب للحياة طعن في كرامته ويرى في نفسه القدرة والكفاءة لتحقيق ما يصبوا إليه. اصطحبني حمّاد ابن قريتي (أبو حنيفة الصغير كما كنا نسميه) إلى أحد تجار السلاح وكان رجلاً نحيفاً طويل القامة صارم الملامح أشبه برجال العصابات. دخلنا مكتبه بعد صلاة العشاء وقد عم الظلام وخلت الشوارع من المارة. بعد ترحاب بنا همس في أذنه حماد معرفاً بي. ومطمئناً للرجل. تفرس التاجر في وجهي وصوب نظراته إلى

عيني. قام من مكانه وأوصد الباب وأرسل خادمه الصغير ليجلب له حاجة من داره لا يحتاجها. ثم قال:

- أنت الآن جديد في مهنتنا ولا بد أن تعرف طبيعة عملنا فهي تجارة لا غبار عليها. ولكنها محفوفة بالمخاطر فيها ربح وفير وتحتاج إلى رجولة. وان كانت ممنوعة. أوصيك بالحذر. فالقدرة والنشاط وحدهما لا يكفيان. لذا سيكون دورك أن تعبر النهر ليلاً. فتوصل قطع السلاح إلى وكيلنا على الجهة الثانية منه. ولك على كل قطعة توصلها نصف دينار. والقطعة التي تفقد منك أنت ملزم بدفع ثمنها. لذا يجب ألاّ يعرف أحداً عنك شيئاً أو يراك حتى أقرب الناس إليك. وتظاهر بأنك تاجر تبغ فالشرطة قد تتساهل مع مهربي التبغ ولكنها لا تتهاون مع مهربي السلاح. فنحن رجال الليل. وهذه مهنتنا.

عندما سمعت بـ(النصف دينار) كبر الأمل في نفسي وازددت شوقاً إلى هذا العمل. جهد قليل وربح كبير. فقلت. باعتداد بالنفس وثقة:

- ستجدني كما تريد إن شاء الله.

مارست تجارة السلاح لحساب التاجر. ثم لحسابي الخاص بعد أن تعلمت أسرار المهنة وطرق تسربها والعاملين فيها وأدركت سر غنى بعض من الناس (... أغا) و(... بك) و(... المختار) في مدينة محصورة لا يوجد فيها زراعة كبيرة ولا

صناعة. واصلت الليل بالنهار وأصبحت من أغنياء القرية. لم أنس (العمة شهامة) وأهلها فكنت أصطحب أمي وأبي لزيارتهم وتقديم الهدايا لهم في مولد الرسول ﷺ. وفي الأعياد وفي آخر زيارة رأيت أبنتها (لذيذة) التي كانت تصب الماء على قدمي وتشارك أمها وأخواتها في إسعافي. بدت (لذيذة) بارعة الجمال قد استدارت مفاتنها. ممشوقة القد ناهدة الصدر. نحيفة الخصر. وركاء. حوراء. غيداء. خفراء[1] قدمت أمي الهدايا لأم لذيذة قائلة:

- أن كنت أنا أمه التي ولدته فأنك أمه التي أنقذته من الموت المحقق ولن ننسى لك هذا الفضل.

شعرت السيدة مرجانة بالغبطة وأشرقت الفرحة في عينيها وقد سمعت باستقامتي وشهرتي وثروتي التي انتشرت أخبارها في قرى الجبل كلّها. تمت الخطبة وأعقبها الزفاف بأفراحه وأتعابه. عاشت العائلة بفيض من السعادة والطمأنينة.

كنت باراً بوالدتي بعد أن توفى أبي ومخلصاً (للذيذة) ومحباً لها. كأكثر ما أحب رجل امرأة. ربما كانت هذه إحدى نقاط ضعفي كثرت أموالي. قصرَتْ القرية عن تلبية أمنياتي الكبيرة المتفتحة وأنا أرى ثراء التجار زملائي.

---

(١) خفراء: شديدة الحياء.

وفي أمسية شتائيه باردة والثلج يتساقط بغزارة والبيت مدفأ تماماً بكانون فحم جبلي مُحَمْر الجمر. كلما خفتت نارهُ أدخل الخدم أخر بدله. وقبالتي زوجتي تعلم بناتي قراءة القرآن الكريم وترتله أمامهن بصوتها العذب الجميل الملائكي الذي أشعر عند سماعه كأنه يملأ رحاب الكون. حملتني الأمنيات للتفكير بعملي. إذ لم تعد تجارة السلاح المحفوفة بالمخاطر تليق بي. لمعَ أسمي في قرى الجبل وما حولها. تقدم بي العمر أصبح لي أولاد (وليس كل مرة تسلم الجرّة) فقد ستر الله عليّ طوال هذه السنوات لحكمة أرادها. رأتني زوجتي واجماً أنظر عبر النافذة إلى الثلج وكأنه قطن ناصع البياض يكسو وجه الأرض. وإذا سقطت الثلوج تعطلت الطرق لأيام وربما أسابيع لأنها تغطي ملامح الطريق تماماً وتخرب منه الكثير. فتبسمت بغرور وقالت مازحة مفتخرة وطمأنينة الرضى والغنى تكسوا وجهها:

- ما يشغل بال (تاجر حلب جياب الحمالة)[1]. لا ينبغي أن تنشغل بغيرنا وأنت بيننا.

أسرتني نباهتها. تبسمت في وجهها. انتظرتها حتى تنهي درسها ثم قلت لها:

---

(١) أهزوجة شعبية تغنى في الأعراس للإشادة بالعروس بقولهم: (ال تلبس مال وال تشلحو مال أبوها تاجر حلب جياب الحمالة).

أسمعيني يا لذيذة. إنني أريد أن أترك هذه التجارة وأنتقل إلى الموصل. وهناك أمارس أنواع التجارة دون خطر يذكر أو مجازفة غير محسوبة. لم تعد تجارة السلاح خِلسة. ترضي طموحي وتستوعب أموالي. فهناك حيث المدينة النظيفة والشوارع المبلطة والطرق التي لا تنقطع. والمجتمع الطيب. فأهل الموصل معروفون بطيبهم وتَديِنهم وحسن معاملتهم للغريب. رأت لذيذة أن الأمر جَدٌ فاقتربت مني وجلست قبالتي وقالت:

- ولمن تتركنا يا محروس بعد أن توفى أبواك؟

- وهل أقدر على فراقك حتى أتركك؟

سكتت وأنا أنظر في عينيها الخضراوتين الواسعتين وكأنهما بحيرتان عميقتا الغور تستقر في قاعهما كل أموال الدنيا ومجوهراتها. ويسحرني إشعاعهما فيطير بي الفكر إلى أسرار الخلق والشوق كلما نظرت فيهما. وقلت في نفسي الحمد لله أنها لم تدرك مقدار حبي وكلفي بها. فتكشف ضعفي أو تستغله فتملي عليّ أرادتها. رغم أني اتخذت من عادات القرية سياجاً أميناً يصون رجولتي وقوامتي[1] في البيت.

انتقلت العائلة إلى الموصل ومعنا بناتنا الثلاث وولدنا الوحيد وأشتغلت بتجارة السيارات وتجارة الكهربائيات ثم

---

(١) القوامة: الإدارة والأنفاق المقترنان بالهيبة والاحترام.

انتقلت إلى تجارة العقارات. لمع أسمي في الموصل. تحققت أمنياتي. في غمرة التجارة ومشاغلها. نسيت تربيتي الأولى ومدرستي بكل زهوها وعلمها ونظامها وأخذتني التجارة بربحها الوفير ولذة المجازفة. وألق الفوز بالصفقات المرغوبة دون غيري.

جاءتني في يوم من الأيام امرأة تستجدي وكان مخزني غاصاً بالزبائن وفي زحمة العمل وأنا حريص على تلبية طلباتهم. تجاهلت الفقيرة. وامرأة أخرى تنتظر أن تحين الفرصة لتشتري مني. وقفت (الفقيرة) أمامي كلوح صلد لا يتزحزح وبجرأة لا تليق بالنساء. ربما كان الفقر وشدة الحاجة هما السبب في صنع هذه النماذج البليدة التي يزداد عناؤها ويقل حياؤها، مدت يدها إلي بالسؤال. تجاهلتها. ونظرت إلي بتوسل قائلةً بصوت ناعم متهدج فيه بَحّة أشبه بصوت الباكية المنتحبة. لم أستطع أن أمفرّق بين الحقيقة أو التمثيل:

- سألتك بالله ولله أن تعطيني،

فأخشنت لها القول وامتنعت عن إعطائها. وطردتها. عظم سؤال الفقيرة في نظر المرأة التي جاءت لتشتري مني. فنسيَتْ حاجتها التي جاءت من أجلها فالتفتت إلي قائلة:

- إنها قد سألتك بالله أن تعطيها شيئاً وإن قلْ. أفلا يحرّك هذا النداء الرحمة والاستجابة في نفسك؟ فتمتد إليها يدك بالمساعدة قبل لسانك بالرفض والطرد؟ ألم تسمع قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1]

وانصرفت المرأة ولم تشتر شيئاً.

كانت هذه الحادثة وخزة أليمة في ضميري وتذكرت (كريم أغا) وتقصيره مع طلبة العلوم الإسلامية. وجاءني نداء من الأعماق يسألني بإلحاح: ما الفرق بينك وبين كريم أغا؟ ربما كان أكرم منك! لم يمتنع عن العطاء لكنه أعطى أسوأ ما عنده. أما أنت فامتنعت عن العطاء كثيره وقليله. ولم تسمع الفقيرة حتى (الكلمة الطيبة) التي طلبها منك القرآن الكريم

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[2]

وتداعى التأثيم والتأنيب في نفسي. استيقظت في منتصف الليل وزوجتي والأولاد نيام. فأخرجت العمامة البيضاء التي احتفظت بها من أيام الدراسة ووضعتها بين يدي نظرت إليها. وتذكرت أيام الصبا ودروس الفقه وتراتيل القرآن الكريم في أروقة المدرسة والطلبة الصغار الأبرياء الذين يتفاخرون بحفظهم الكثير.

---

(١) سورة الأنبياء / ٩٠

(٢) سورة البقرة / ٢٦٣

ويتعالم بعضهم على بعض ويحاكي بعضنا الشيخ في طريقة إلقائه وحركاته. في غمرة الذكريات اللطاف شعرت وكأن العمامة تكلمني فتقول:

- لم تحفظني وتصن كرامتي عندما كنت فوق رأسك في المدرسة. فلم تصبر على شظف العيش حتى تعطيني حقيقتي، فلا خير في رأس خال من العلم تعلوه عمامة كبيرة ملؤها الزيف. ولم ترع حقي وتذكر أيامي وأنا محفوظة في دولابك. فعاملت الفقيرة بالجفاء كأنك لم تسمع:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1]

ألمت بي أيام من الحزن. بدأ حزني يتناقص في غمرة العمل المتواصل والتجارة وحساباتها. نسيت بعد أيام هذه الحادثة وتحولت التجارة إلى غاية أسعى لها بكل كياني في يقظتي وفي منامي فصارت لي صنماً أتعبد في محرابه من حيث لا أدري فأخرج من البيت مع باكورة الصباح ولا أعود حتى المساء دوامة من العمل والكسب وأصبح الكسب غاية في ذاته ونسيت الأهم منه.

لم أشهد تنشئة ابني الكبير الوحيد. تزوجت البنات واحدة بعد الأخرى وسافرن مع أزواجهن إلى قرى الجبل حيث

---

(١) سورة النحل/ ٩٦.

أهلي وجذوري ومراتع صباي. بقي أبني (سَعدْ) وأنا ولذيذة. التي لم أعتب عليها طوال حياتي معها. إلا أنها وقد تجاوزت الأربعين وشبَّ أبننا سعد عن طوق انشغلت به تدلله وتلبي رغباته وتصدني عن توجيهه بفضلات الوقت التي التقيهما به. تغضب لغضبه وترضى لرضاه. وقد شغفت به حباً حاولت جاهداً أن أبين لها خطأها فازدادت إصراراً. كان لنا دار في الموصل مسجلة باسمي وأسمها فألحت علي أن أسجل الدار كلها بأسمها ... وتجارتي عامرة والأموال تجري في يدي وتزداد. استجبت لرغبتها ومرت الأيام رتيبة رغم تعبي في التجارة وألمي في البيت. وفي يوم من أيام كانون الثاني والريح تهب باردة عاصفة بدأ الثلج يتساقط بشكل كثيف وأنا في دوامة البيع والشراء والمكتب مليء بالزبائن والتجار. جاءني صديق طفولتي (حماد) وصاحب الفضل علي فهو الذي عرفني على تاجر السلاح وكان قد تخرج وعين خطيباً في قريتنا بعد أن توفى جدي وبقي المنبر خالياً. كانت ملابسه رثة رقيقة ومهلهلة. وقد أصابته (لعنة المستر كوك) المشرف على الأوقاف في زمن الاحتلال البريطاني للعراق. وقد وضع الخبيث خطة ماكرة ليصرف المسلمين عن العلوم الإسلامية. أولها إلحاق المدارس الدينية كلها بدائرة الأوقاف. وحرمان أجيال المسلمين من التعليم الديني. وتقليل رواتب العلماء والأئمة وطلبة العلم إلى

ما لا يكفي لسد الرمق بل يدعهم تحت سياط الحاجة للغير والعوز.

وفي الوقت ذاته كانت رواتب الموظفين عالية جداً نسبة إلى رواتب العلماء. فالشرطي كان يأخذ أقل راتب في السلم الوظيفي. (سبعة دنانير ونصف) والخطيب يأخذ (ثلاثة أرباع الدينار). أستمر الالتزام بنظام مستر كوك إلى سنة ١٩٥٨م. استقبلت حماد استقبالاً بارداً كبرودة ذلك اليوم. ولشدة حاجة الرجل. تجاوز تلك المقابلة التي لا تليق برفقة الصبا المحببة. وذكريات الشباب الحلوة الجميلة. بحلمه وصبره المعهود. ربما عذرني لكثرة أشغالي أو تظاهر بذلك. لم يتوان أو يتردد خشية أن تضيع فرصة اللقاء معي وهو يراني في عجالة من أمري فشرح لي حالته وشدة حاجته التي لم تكن تحتاج إلى مزيد من الكلام. فحذاؤه ممزق وقد خاطه بيده. وجبته أقصر من ثوبه. وعمامته بقايا أثواب قديمة قد لفها على بعضها. قاطعته بقولي:

- واضح يا حماد ستأكل طعامك أولاً. (وكنت قد أرسلت أحد خدمي ليأتيه بالطعام). وأن كانت تجارتي تمر الآن ببعض المآزق وليس لدي ما أستطيع إسعاف طلبك به.

ما أنْ أتممت كلامي حتى نهض حماد. وكأن ألسنة من نار قد لسعته أو عقارب صفراء أفرغت سمها في بدنه فأمسكت

به قائلاً كل طعامك فما زال في الوقت متسع. نظر إليّ بأسى وحزن عميق ثم قال:

-أشكرك قد تعلمت الصبر على الجوع (من كريم أغا وأمثاله)

ثم قال بسخرية مريرة:

- ربما كنت أحوج مني إليه.

التقى الشيخ في باب متجري ابن عمي (رجب) الذي أتى تواً من القرية قرأ رجب وجه الشيخ الذي يعلوه الأسى رغم معاناته أن يبدو طبيعياً رابط الجأش متمالك لنفسه. فعلم أن الأمر لا يخلوا من مأزق عكر صفو الشيخ. شعرت بالخزي أمام نفسي. لحظة فارقني (أبو حنيفة الصغير) بكل طهره وعنفته وانتابتني حالة من الإحساس بالتقصير وقلة المروءة.

دخل علي (رجب) وقبل السلام علي بادرني بالقول:

- ماذا فعلت بالشيخ؟ إياك أن تكون قد أغضبته أو خذلته فأني لم أرَ الشيخ طيلة هذه السنين بالرغم من عيشة الكفاف التي يعيشها بمثل حالته الآن وهو خارج من متجرك.

حاولت أن أقاطعه فقلت له ببشاشة متصنعة

- سلم أولاً يا أخي. كيف حال الأعمام والأخوال. والعمات والخالات؟

جلس رجب على أريكة قبالتي وكأنه لم يسمع مقالتي ثم قال:

- مضى علي خمس سنوات وأنا بصحبة الشيخ. ويقدم له أغنياء الجبل زكاة أموالهم ويقوم الرجل بتوزيعها بكل أمانة. قبل ستة أشهر كان يفرق الأموال على العوائل الفقيرة وجاء أبنه الصغير يلبس نعلين مخرمين فقلت له:

أعط يا شيخ هذا الطفل ثمن نعلين جديدين.

نظر إلي ملياً ثم قال:

- يوجد في قريتنا أطفال حفاة فهو أحسن حالاً منهم.

وقد فرق هذه السنة مئات الدنانير. وزوجته تسقط أرضاً أحياناً من شدة الهزال والإعياء. وسوء التغذية. ولم أسمع الشيخ يوماً يشكو أو يتذمر. وهو ليس كسولاً بلا عمل. بل يعمل في موسمي الزرع والحصاد بيديه ليغطي نفقات عائلته. وهو بهذا الجهد والفقر. جاءه ممثل (متصرف أربيل)[1] يطلب منه أن يكون أحد أعضاء وفد وجوه (المتصرفية) للذهاب لتهنئة المندوب السامي البرطاني بعيد الميلاد وقد حمل معه مئتي دينار للشيخ إن وافق على الذهاب معهم ليشتري له ملابس جديدة وينفق على عياله منها. غضب الشيخ يومها وأحمرت عيناه وقال بإصرار: قل لسيدك إن (أبا حنيفة الصغير) لا يبيع دينه بحفنة من الدنانير...

(١) المتصرف: هو منصب أداري. يقابل المحافظ في الوقت الحاضر.

أسقِطَ في يدي. أخطأت خطأ العمر لم أعد قادر على إصلاح ما فات. رجعت إلى البيت فقدْت الشهية للطعام.

انتابني الأرق. كلما أردت النوم رأيت شبح الشيخ أمامي يكسوه الأسى.

بقيت سهران حتى أذان الفجر. اغتسلت ثم صليت صلاة الفجر في وقتها، وقد مضى عليَّ بضع سنين أصليها بعد طلوع الشمس. وأمنح نفسي العذر بأني متعب ونائم.

عاهدت ربي ألا أرد سائلاً وقد أدركت أنه عهد صعب على النفس الوفاء به. لكن الذي زاد الطين بلة هو استهتار أبني الوحيد وطغيانه الذي لم أستطع الحد منه. فعمدت (لذيذة) إلى تزويجه بفتاة أختارها على هواه. كانت موجة الندم هذه نوع من التأديب للنفس الأمارة بالسوء التي لا تقنع. وتذكرت صورتي أيام الشباب. ذلك الفتى محروس الذي جرحت كرامته من قبل. معاملة (كريم أغا).

وصورة محروس اليوم التاجر الكبير الذي رد أعز أصدقائه وشيخ القرية الوقور الصبور. أنها صورة إنسانية بائسة تستحق الرثاء.

دارت الأيام وساد السوق كساد كبير وقلَّت الواردات وازدادت المصروفات. ووفيت بعهدي مع ربي فأرسلت بصحبة أبن عمي ما يكفي الشيخ مؤونة ثلاث سنوات مع رسالة

اعتذار. أبكت الشيخ عندما قرأها. نُكبتُ بعدَّة صفقات تجارية خاسرة أتت على شطر ماليْ. وأتى على الباقي تاجر محتال كان قد تعامل معي عدة معاملات صغيرة رابحة فأغراني الربح والرغبة بالتعويض فاشتركت معه في صفقة. كانت وهمية لا حقيقة لها لكنها أتت على كل ما أملك. فلم يبقى لدي شيء.

ازدادت رحلة العذاب مع الابن العاق لوالديه. فكان منظر الخصام بين لذيذة وزوجة سعد يومياً. شيئاً مألوفاً. حتى وصل الخصام أوجه. فتطاول سعد على أمه فلم تحتمل الصدمة وخيبة الظن به. فسقطت مغشياً عليها ثم توفيت على أثر نوبة قلبية. وبعد انتهاء أيام العزاء عشت أيام الوحدة القاسية فعند دخولي الدار بعد يوم حافل بالتعب يَدعاني سعد وزوجته. وحدي ويدخلان غرفتهما في الطابق الثاني كأني أجرب أو مجذوم يخافون العدوى منه كنت مؤمناً أن ذلك جزء من العقاب لي فتقبلته بصبر. وبالرغم من الألم الممض حفظت كرامتي فلم أتعرض لهما أو أطلب منهما. حتى ملابسي كنت أغسلها بنفسي. وأنزوي في ركن غرفتي آكل ما أصطحبه من السوق عدت مساء أحد الأيام متعباً. كثير الهموم قد ضقت ذرعاً بوحدتي وعزلتي وتراجع أيامي. طرقت الباب كعادتي. فخرج رجل غريب طويل القامة عريض المنكبين نظر إلي باستعلاء ثم قال بصوت نحاسي مبحوح كصوت الدلالين في

سوق الخضار أو صوت السجانين الذين تعودوا إهانة الناس والاستعلاء عليهم:

- تفضل ماذا تريد؟

قلت:

- أنا صاحب الدار وهذا بيتنا...

- فقال أتقصد بيت سعد؟

قلت:

- نعم.

مط شفتيه استخفافاً وهز كفيه في الهواء ثم قال:

- إن سعداً قد باع الدار وسلمنا إياه اليوم. وأرتحل إلى كركوك.

أدركت الموقف كلّه. لم أجبه ولم أزد عليه لأن العتب ضائع. ولأن الحب لا يستجدى كما أنه لا يُشترى ولا يباع. فمن لم يشعر بحبه ومسؤوليته عن أبويه. فتركه أولى من خصومته.

نظرت في عيني الرجل اللتان امتلأتا سخرية بي فوق مصائبي. وأنصرفت. لم أشأ أن أفضح سري لأحد. أو أحمّل الناس شيئاً من همومي. تذكرت الدرس الأخير واستحضرت صورة الشيخ عبد الحكيم وقد اصطحبنا في نزهة ربيعية لتسلق جبل (سفين) العالي الذي يناطح السحاب وهذا كان دأبه بين

الفينة والفينة. وهناك عند قمة الجبل المطل على المدينة رفع حماد أذان الظهر بعد أن فاز بسباق التسلق ووصل القمة قبلنا.

وبقي الشيخ مع أخر متسلق وكان تلميذاً أعرج. فبقي معه لئلا يشعره بالحرج.

بعد الصلاة تناولنا وجبة الغداء. ثم تحلقنا حول الشيخ سكت الشيخ. بانتظارنا أن نكف عن الكلام ثم قال:

- درسنا اليوم عن الصبر وقد ذكر القرآن الكريم أثنين وسبعين آية في الصبر منها ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)

ولا أدري لماذا توجه إلي بالسؤال. لا بد أنه ينظر بنور الله. فقال:

- (محروس... ما معنى) قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا**﴾[2].

لم أتردد في الإجابة فقلت:

- الصبر الجميل (سيدا) هو (الصبر بلا شكوى).

---

(١) سورة لقمان/ ١٧.

(٢) سورة المعارج/ ٥.

تذكرت هذا الدرس وأنا أخرج من أهلي ومالي فقد ماتت لذيذة وكان موتها قاصمة الظهر لي. وتزوجن البنات وبعدن عني. وعقني أبني الوحيد. وذبل عودي وبارت تجارتي فلم أستطع سداد إيجار المحل. سددت ما علي من ديون وَتركت المحل. وعدت لا أملك إلا نفسي وثيابي. رحت أبحث عن مأوى. اشتغلت عامل بلدية في النهار أخرج بعد صلاة الصبح إلى عملي ولا أعود حتى الساعة الثانية بعد الظهر. متعبا منهوك القوى فأستسلم لساعات النوم. أهرب إليها من دوامة التفكير. لذت بالصمت وبدأت رحلتي داخل الذات أصفي حسابات الماضي القريب وأدين نفسي وأقول:

حَسَنتَ ظنك بالأيام إذ حَسُنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفوَ الليالي يحدث الكدر

لا زال منظر الشيخ حماد وهو يغادر متجري ملوماً مدحوراً أمامي يؤرقني. وأشعر بعظم ذنبي. لم أعطِ عنوانيِ لأحد. غيرت ملامحي وغيرت ملابسي. لبست زياً تنكريا يصعب التعرف عليّ فيه غيرت أسمي وكنت أجمع ما زاد من راتبي فأرسله بحوالة بريدية إلى الشيخ باسمي المستعار. لا أريد جزاءً ولا شكوراً. أريد تطهير ذاتي من الداخل أريد أن يكون مَخبري

خيراً من مظهري. أريد أن أنام بلا قلق وأن أصبحَ بلا تأثيم أو تأنيب. أريد أن أخرج لا لي ولا عليّ. حتى أبني العاق رثيت لحالِه. فما هي إلا سنوات معدودة سيذبل شباب المرأة الفتان ويذوي جمالها ويترهل جسدها ويطول لسانها. ويكبر الأبناء فيعاملوه بقضاء الله العادل ﴿**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ**﴾[1] وقول الصادق المصدوق ﷺ:

((إعَمل ما شئت كما تدين تدان))

بدأت ادعوا (لكريم أغا) بالمغفرة. لم يكن يستحق مني كل تلك الثورة والاعتراض والسخط. وأدركت أن الإنسان ضعيف وأنه يستحق الرثاء والدعاء والعون والإضاءة والاستبصار بدل الإهانة والتبكيت والطعن والتشنيع. ضاع كل شيء في لحظة من الزمان. المال والأهل والولد والسكن بقيت حقيقة في داخلي تكبر وحزمة ضوء مشتت تتركز أمام عيني. لكن مشكلة سكني والمأوى الذي يلمني أصبحت ملحة. قادتني قدماي إلى بيت (خاتون خوقة) امرأة موصلية ثرية ماتت ولم تترك وريثاً. ولها بيت كبير قديم ذا غرف كبيرة أشبه بالفندق أو الخانات في الأربعينات. يقع في ساحة السرجخانة تحت مسجد زينب خاتون في ركن الشارع الموصل إلى الجامع الكبير. صار مأوى

---

(١) سورة فاطر/ ٤٣.

المتشردين والفقراء. قادتني قدماي المثقلتين إلى حيث لا خيار لي فلم أجد إلا غرفة صغيرة تتسع لمنامي أو ما يسمى (تحت الدرج) إستَسْمَحْتُ السكان من باب اللباقة فأشار عليَّ رجل كبير السن بقوله:

- الغرف كلها مسكونة بعوائل مهجرين من تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى

ثم قال بضيق

- أجئت لتكمل حبات المسبحة؟

نظرت إليه بيأس وقلت ولو بنصف غرفة أو (بيتونة)[1].

قال ساخراً وبنبرة من لا يصدق. إني سأرضى بما يقول:

- يوجد بيت للدجاج تحت الدرج ولم نشتر دجاجاً بعد. إن شئت أن تسكنها!

لم يدرك الرجل أنه لا خيار لي. شكرته في الحال وأدركت أن نفوس الفقراء قد تكون ضيقة حسيرة. لا تتحمل المزيد من المضايقة والضنك. على قول المثل الشعبي (مكدَي ما يحب مكدَي) أردت أن أكسب ودَّهم. فعمدت في الصباح إلى تنظيف فناء الدار وجمعت القمامة وألقيتها بعيداً عنهم. بعد أن أفزعتني القذارة التي يعيشون فيها. وجرحت إحساسي بالنظافة والطهر. فأنا أبن الجبل الذي يغتسل بالمياه طيلة أيام

(١) البيتونة: غرفة صغيرة فوق السطح

السنة عيوناً وشلالات وبرك، وأبن العز القريب والثراء الكثير فنال ذلك استحسانهم وبقيت أحمل لأطفالهم الصغار مكعبات السكر كل يوم فيجتمعون حولي ويستقبلوني من بعيد وكأنهم أولادي فأفرق القطع بينهم بحبور ومَرح. أدركت أن الشافعي رحمه الله كان على حق عندما قال:

(أنا أن عشت فلن أحرم خبزاً وإن مت فلن أعدم قبراً)

وعشت معهم بضع سنين. ومن عادتي التبكير بالنهوض وبعد صلاة الصبح من يوم الجمعة بقيت على سجادتي أذكر صُروف الدهر وتقلب الأيام حتى سَكنتُ ما يشبه القبر. بدأ الضَوء يملأ رحاب المدينة ولم تكد ترتفع الشمس بعد. وإذا برجل وامرأته يدخلان غرفتي بَلا استئذان قد احمرت عينا المرأة، وشعرها منفوش بلا نظام ولا احتشام يبدو أن المفاجأة أذهلتها فَنَست غطاء رأسها. ظننت للوهلة الأولى أن مصيبة حلت بهما. يريدان الاستعانة بي. لكنهما بدءا يعبثان بأشيائي القليلة وامتدت أيديهم إلى ملابسي كذلك وهما يلعنان ويسبان من سمح لي بالإقامة عندهم ويتهموني بسرقة سوار الزوجة. وكان لها من زوجها (الكسول المتثاقل الذي يشتغل يوماً ثم لا يشتغل حتى ينفد ما عندهم) ستة أطفال صغار ذو وجوه نظرة وملابس رثة قذرة قبل أيام رأيت زوجها يساوم على المصاغ في سوق الصاغة. سلمت عليه بيدي وأنا أمر بالقرب منه عائداً إلى

بيت (خاتون خوقة) وقفت الزوجة أمامي تولول وتسمعني من السباب ما لم أسمعه في حياتي.

وأنا متعجب مبهوت. ليس منها، لكنه من الزوج الصفيق الذي يراهن على مروءتي ويستغل سكوتي. أجتمع السكان عليّ وطردوني محملاً بوزر لم أقترفه.

لكني لم أشعر بالظلم كأنني أعاقب نفسي أو أدفع ديناً عليّ أو هي عقوبة على ذنب قديم لم أعاقب عليه في حينه واعتبرت أن ما يصيبني هو تطهير لذاتي. إلا يكفي صدودي عن حماد في وقت محنته ذنباً؟

والتعامل التجاري المصرفي (الاقتراض بالربا)! السهو عن الصلوات! وذنوباً كثيرة الله أعلم بها لا ينبغي أن يفضح المرء نفسه، أثرت السكوت من أجل أطفال ستة خشيت عليهم من التشرد والضياع، إن قلت الحقيقة.

لذت بالصمت. وحملت متاعي الخفيف لأهيم على وجهي مرة أخرى. بكيت على فراق الأطفال وفرحتهم بي كل يوم. مشيت جنوب الموصل حتى وصلت (الجوسق) بساتين كثيفة خضراء تكثر فيها أشجار الفستق. لم أجد من يحفل بي أو يؤويني ولم أجرؤ أن اسأل أحداً أو لم تسمح لي كرامتي بذلك. القيت متاعي على سياج أحد البساتين، ونمت في ظلال أشجارها استيقظت وقد أذهب الله تعالى عني الحزن والتعب.

إستَسَمْحتُ أحد الفلاحين بدخول البستان لأتوضأ فدعاني إلى الطعام فامتنعت وأنا أكابد جوعاً مؤلماً فألح عليّ.

استجبت له وبقيت معه حتى أذان العصر ثم حملت متاعي. ومشيت باتجاه باب سنجار فواجهتني بناية عالية فوق (تل كناس) ينبعث منها نور خافت. قادتني رجلاي المتعبتان إليها. كانت الحرب العربية الإسرائيلية قد قامت واستولى اليهود على أراضي فلسطين. وشردوا ما يزيد على نصف مليون فلسطيني بمباركة الإنكليز ومساعدتهم. وصل قسم من هذه العوائل إلى مدينة الموصل فنزلوا هذه البناية إنها قريبة الشبه ببيت (خاتون خوقة).

عوائل كثيرة تشغل كل منها غرفة واحدة لم أجرؤ على الدخول أو الطلب من أحد بعد أن عرفت مصابهم الأليم.

أفأُزاحم هؤلاء المشردين المظلومين.

توجهت إلى جامع (الإمام الباهر) وسط دخان تنانير الخبز. أمام الدور، ونسوة المنازل اللواتي قد احمرت وجوههن أمام النار فازددن ألقاً وجمالاً فذكرتني بأيام لذيذة رحمها الله وكأني مُخدَّرْ يرى الإبرة ولا يشعر بوخزتها أو رجل فاقد الذاكرة. وسلال الخبز الحار الشهي. والأطفال حَوَلهن قد أمسك كل طفل بكسرة خبز. مررت من بينهن أحمل مصابي. لم يحفل بي أحد وربما لم تنتبه إلىّ إحداهن فالفقراء كثير ولا

أحد يحفل بهم. كم تمنيت لو ناولتني إحداهن كسرة خبز حار! صليت المغرب والعشاء وتقدمت بدل الإمام لتغيبه، على غير عادتي، ربما بدافع الإعلان عن وجودي الغريب بينهم وصلى معنا قسم من رجال المأوى. طابت نفوسهم لقراءتي وارتاحت أسماعهم فتشبثوا بي وطلبوا مني الاستمرار على حضور المسجد. رأوا معي أمتعتي القليلة مرزومة فظنوا أني فلسطيني مشرد، تعرفوا عليّ – تعلمت ألا أبث حزني إلا إلى الله. فقلت كما ترون لا ملجأ لي رقوا لحالي (فكل غريب للغريب نسيب) تعاونوا على تدبير غرفة في المسجد لسكني.

لم أتخلف عن عملي في بلدية الموصل في محلة المشاهدة وخزرج وانحصرت حركتي بين عملي والمسجد. عدت عصر أحد الأيام من عملي متعباً حزيناً فحياة الوحدة لا تطاق (ومسكين الرجل الذي لا زوجة له) والرتابة والفراغ أذاقاني طعم الصبر. وكان الليل لا يمضي إذا لم يبدد ظلامه دموعي. في منتصفه أو في آخره، وجدت قرب المسجد عائلة محزونة معهم صبي أعمى جاءوا به إلى (بيت سيد توحي) وهي عائلة مشهود لأبنائها بالتدين ويرقون المرضى والخائفين ويدعون الله لهم بالشفاء، لم يجدوا (السيد توحي) فقد ذهب إلى قضاء بعض حاجاته، فلما رأوني مقبلاً توسّموا فيّ الصلاح أو هكذا بدوت في نظرهم بلحيتي البيضاء الطويلة ونظري إلى طريقي لا ألتفت إلى

أحد كمسافر عبر الزمن. ليس له أسرة ولا أهل. طلبوا مني أن أرقى طفلاً خائفاً كاد يفقد بصره على أثر حادث. مددت إلى رأسه يدي وقرأت الفاتحة ثم سألت الله تعالى بتوحيدي وإفرادي له بالعبادة وبحبي له ولرسوله ﷺ. فأنا لا أملك غير هذا. بل تائب هارب من ذنوبه التي أقضت مضجعه. أن يشفي الطفل، حدث ما لم يكن بالحسبان. فتح الطفل عيناه وأخذ يبصر أمه وأباه وأخوته وعلت الزغاريد في الحي. يا للفضيحة، إني قد هربت من المجتمع ومن الحياة التي أنستني أعز أصدقائي. أأعود إليها بثوب جديد فتفسد توبتي وتعجبني نفسي؟ أسرعت الخطى وتركت الجمع. ودرت حول المسجد. ودخلت فيه من الباب الخلفي قبل أن يعرفني الناس. والفرحة تملأ قلبي برضى الله عني وقبول دعائي. وعاد الناس يتحدثون عن الرجل المبروك من أهل الخطوة يشبه (غريباً) عامل بلدية وكان هذا هو اسمي المستعار. وصلتني هذا الحكاية فتبسمت وقلت (يخلق من الشبه أربعين) أسررت في نفسي أن هذا أفضل لديني وصفاء سريرتي. وازدادت هذه القناعة لدى الناس. يوم كنت أصلي الجمعة في جامع الأغوات قبل أشهر قرب الجسر الحديدي القديم وكان خطيبه آنذاك الأستاذ بشير الصقال – رحمه الله– وكان أفضل خطباء المدينة يجتمع عنده المثقفون والشباب، تأخر الأستاذ في ذلك اليوم ورفع الأذان ولم يدخل

الخطيب، تلفت الناس. لم يجرأ أحد أن يأخذ مكانه. قمت بملابسي المتهرئة والتي لا أملك غيرها وبأثواب (غريب) عامل البلدية. صعدت درج المنبر وجلست مكان الأستاذ وسط دهشة المصلين وانتظارهم وترقبهم لنتائج المأزق الذي وضع نفسه فيه هذا العامل الجاهل. رفع الأذان بين يدي ثم قمت خطيباً. فتكلمت عن التوبة حتى أبكيتهم كانت الخطبة بليغة فصيحة قصيرة ثم أقيمت الصلاة وصليت بهم ثم تسللت بعد انتهاء الصلاة ولم أصل السنة فخرجت من المسجد مسرعاً. ولم أعط الفرصة لأحد للحديث معي والتعرف عليّ تركت الجامع وسط إعجاب الحشد المثقف ودهشته من هذا الاقتدار والبلاغة. وطلاقة اللسان وحضور الدليل. وسرت حكاية الرجل المبروك من أهل الخطوة. قد ألقى الخطبة بدل الأستاذ بشير الصقال منذ ذلك اليوم حتى أخذت مداها. دفعت باب غرفتي الموصد على عجل فكانت المفاجأة. ابنتي الصغرى (آيات) وزوجها وأولادها ينتظرونني. أذهلتنا لحظة اللقاء. فبقيت مسمراً في مكاني ثم أخذتها بين يدي أقبلها وأشم رائحتها وهي كذلك وكأني التقيت أبي وأمي وزوجتي (لذيذة) وأولادي جميعاً. بكينا وأنهمرت دموعنا على طول الفراق وسني العذاب والبعد والشعور بالحسرة. بكت (آيات) كثيراً وهي تعاتبني قائلة:

- لو تعرف يا أبي كم بحثت عنك؟ لم أترك قرية من قرى الموصل إلا فتشت فيها وسألت عنك تحسست آلامك والجراح العميقة التي أحدثها نزق أخي سعد معك، ولم أستشعر مقدار حبي لك إلا بعد أن افتقدتك.

وأصرت على اصطحابي إلى بيتها في الموصل. فقد نزحت هي وزوجها إلى الموصل قبل عدة سنوات وهم يبحثون عني وتتبعوا أثري من هنا وهناك حتى التقتني. اشترطت على (آيات) وزوجها شرطاً واحداً هو أن تدعني أعمل وأكسب رزقي وأنفق على نفسي وأن أبقى يداً عليا. فوافقا على ذلك.

لم أعد أصلح للعمل في دوائر البلدية لكبر سنيَ. فحملت (الكونية) على ظهري أجوب الأسواق أحمل أمتعة الناس الخفيفة من داخل السوق إلى الشارع راضياً بالقليل لم أعد أتطلع للمزيد فقد يكون في المزيد الهلاك. عوضني الله تعالى بأبنتي عن الحب المفقود والابن العاق. وسكن الوحدة المرعب فكانت (آيات) بارة بي وخيراً لي من (الولد المدلل) الذي أستأثر بالحب في الطفولة والمال في شبابه وترك وراءه أماً قضت نحبها كمداً، وأباً مشرداً لا مأوى له.

وقد يجمع الله الشتيتين
بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٩٤ لسنة ٢٠٠١

صدر للمؤلف

١ - الطب الوقائي في الاسلام .
٢- السؤال الصعب .
٣- لماذا نصلي .
٤- حقيقة العبادة .
٥- رحلة النور .
٦- التوحيد في الولاء والبراء .
٧- فتى حلب .
٨- التوحيد ومنهج الحياة .
٩- ظاهرة الوحي .
١٠ النصر لمحمد
١١- حوار في سوق السنك .
١٢- الإسلام هو الحل .
١٣- امرأتان تختصمان .
١٤- امرأة من الشيشان .
١٥- الاسلام وعلم الغيب .
١٦- أدب الحوار .
١٧- رؤية قرانية للاحداث .
١٨- من اجل ابنني .
١٩- تطوير العقل المسلم .
٢٠- إيمان الشباب .
٢١- في الطريق الى الإيمان .
٢٢- نجاة والشيخ .
٢٣- نزغ الشيطان .
٢٤- من أين نبدأ .
٢٥- نحن قادة الحضارة .
٢٦- عائشة بنت الجبل .
٢٧- سر بكائي .
٢٨- جيل الردع .
٢٩- حوار مع الدكتورة هدى .
٣٠- الهاجس المر .
٣١ - الحرية في رحاب الايمان
٣٢- الندم .
٣٣- شباب الجامعة .
٣٤- أسير في قصر هرقل .
٣٥- البناء الحضاري للأمة .
٣٦- لواء البحر .
٣٧- المسار .
٣٨- اليوم عبدت الله تعالى .
٣٩- رسالة الى الاجيال .
٤٠- امرأة وثلاثة رجال .
٤١- القوي الأمين .
٤٢- اسئلة زهراء الجريئة .
٤٣- أيام في صحبة الأستاذ .
٤٤- حقيقة الإنسان بين الإسلام
والفكر الغربي
٤٥- رحلة الى جيل الصحابة .
٤٦- لا يا ابنني .
٤٧- موسى بن ابي الغسان .
٤٨- أصول فهم الإسلام .
٤٩- الخطيئة .
٥٠- فتى من الموصل .
٥١- ليلة الخوف . .
٥٢- حوارات قدسية .
٥٣- فتح الموصل .
٥٤- أدبتني امرأة .
٥٥- يا ولدي .
٥٦- المنطلق .
٥٧- فتى مكول .
٥٨- المختار .

طبع في شركة الخنساء للطباعة المحدودة - بغداد - هاتف - ٨١٨٦٣٢٨ - تيلفاكس ٨١٨٤٨٠٧